بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف

القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن اتبع هداه.

(وبعد)

فهذه الصحائف في بيان الرّكائز الإسلاميّة لرعاية البيئة، اقتبستُها من كتابي (رعاية البيئة في شريعة الإسلام)، وهي ثماني ركائز أساسيّة، هي:

1. التّشجير والتّخضير.
2. العمارة والتّثمير.
3. النّظافة والتّطهير.
4. المحافظة على الموارد.
5. الحفاظ على صحّة الإنسان.
6. الإحسان بالبيئة.
7. المحافظة على البيئة من الإتلاف.
8. حفظ التّوازن البيئي.

أرجو أن تلقي شعاعاً من ضوء على موقف الإسلام من هذه القضية الكبيرة، التي أمست مثار اهتمام العالم كله. وقد قدّم الإسلام بمصادره وأصوله وأحكام شريعته فيها ما يكفي ويشفي ويغني، والحمد لله الذي أكمل لنا الدّين، وأتمّ به النّعمة علينا: [ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا] [المائدة:3].

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

(1)

التّشجير والتّخضير:

من ركائز المحافظة على البيئة في الإسلام: العناية بالتّشجير وتخضير الأرض بالغرس والزّرع.

نقرأ هذا في القرآن الكريم في معرض امتنان الله على خلقه بما سخّر لهم من أسباب الزّرع والغرس والشّجر والخضرة. فيقول تعالى: [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ] [الأنعام:99].

وقد تكرَّر هذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم في سور شتَّى، ونبَّه فيها على عنصرين مهمَّين من فوائد الزّرع والشّجر والخضرة:

العنصر الأوّل: **عنصر المنفعة،** كما في قوله تعالى**:** [أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ] [السجدة:27]، فأرشد إلى منفعة الأكل من الزّرع لهم ولأنعامهم معهم، بل قبلهم.

والعنصر الثاني: **هو عنصر (الجمال)،** وهذا ممّا قد يتصوَّر بعض النّاس أنّ الإسلام لا يهتمُّ به، ولا يجعل له اعتباراً، وهو وَهْمٌ لا أساس، فإنّ الله تعالى جميل يحبّ الجمال، كما علّمنا رسول الله ρ. وقد وضّح هذا في آيات كثيرة من كتاب الله عزّ وجلّ، كما في قوله: [وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ] [النمل:60]، فانظر إلى هذا التّعبير المبين [حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ]، أي ذات حسن وجمال، تبهج النّفس والخاطر، وتسرُّ العين والقلب.

السنّة تأمر بالغرس والزّرع:

والأحاديث النّبويّة تؤكّد هذا الأمر، وتزيد على ما في القرآن بما ورد فيها من الأوامر النّبويّة، والتّوجيهات المحمديّة بالغرس والزّرع في جملة من الأحاديث الصّحاح. منها: ما رواه الشّيخان عن أنس قال: قال ρ: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلّا كان له به صدقة»[1]. وممّا يلفت النّظر هنا: أن تكتب الصّدقة والمثوبة للغارس والزّارع، على ما أُخذ من زرعه وثمره، وإن لم تكن له فيه نيّة، لمجرَّد اتّجاهه إلى الغرس والزرع، فكلُّ ما يستفاد منه لكائن حيٍّ له فيه ثواب.

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غداً! فقال عمر: أعزم عليك لتغرسنَّها! فقد رأيتُ عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي[2]. فعمر الخليفة الراعي المسؤول يرى ألّا تترك أرض صالحة للغرس والزّرع دون أن يُستفاد منها، وينبِّه أصحابه على ذلك، ويساعد بنفسه. وهذه قمّة الشّعور بالمسؤوليّة.

فهذه عناية الصّحابة بالغرس والتّشجير، بفضل هذه التّوجيهات القرآنيّة والنّبويّة التي حفّزتهم إلى أن يُخَضِّروا الأرض، ويجعلوا منها حدائق ذات بهجة، تنبت من كلِّ زوج بهيج.

وعن أنس أنّ النّبيّ ρ قال: «إن قامت السّاعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألّا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»[3]. وليس هناك حثٌّ وتحريض على الغرس والتّشجير أقوى من هذا الحديث، لأنّه يدلُّ على الطبيعة المنتجة والخبرة للإنسان المسلم، فهو بفطرته عامل معطاء للحياة، كالنبع الفيَّاض لا ينضب ولا ينقطع، حتى إنه ليظلُّ يعطي ويعمل، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، فلو أنّ الساعة

---

(1) متفق عليه.

(2) انظر: الأحاديث الصحيحة للألباني (17/1)، وقد نسب الأثر لـ (الجامع الكبير) للسيوطي.

(3) رواه أحمد.

توشك أن تقوم، لظلّ يغرس ويزرع، وهو لن يأكل من ثمر غرسه، ولا أحد غيره سيأكل منه، لأنّ الساعة تدقُّ طبولها، أو ينفخ في صُورها، فالعمل هنا يُؤدَّى لذات العمل، لأنه ضرب من العبادة، والقيام بحقِّ الخلافة لله في الأرض إلى آخر رمق.

ولقد بيّن لنا العلم الحديث: أنّ التّشجير له فوائد أخرى - غير ما عرَفه النّاس قديماً من الثّمر والظلِّ وتخفيف الحرارة وغيرها - مثل المساعدة في حفظ التّوازن البيئي، وامتصاص الضّوضاء، ومقاومة الآثار الضّارة للتّصنيع على البيئة، أو التّخفيف منها على الأقل.

(2)

العمارة والتّثمير:

ومن المقوّمات الأساسيّة للمحافظة على البيئة في نظر الإسلام: ما حثَّ عليه التّوجيه الإسلامي، وقام عليه التّشريع الإسلامي: من عمارة الأرض، وإحياء مواتها، وتثمير مواردها وثرواتها.

حتى إنّ الإمام الرّاغب الأصفهاني اعتبر (عمارة الأرض) أحد مقاصد ثلاثة أساسية خُلق لها الإنسان، وهي العبادة والخلافة والعمارة[1].

ومن هنا كانت عمارة الأرض وإصلاحها، وحظر الإفساد فيها، ممّا اتّفقت عليه شرائع الأنبياء، ورسالات السّماء.

ومن هنا جاء التّنويه بهذا المقصد الكبير على لسان نبي الله صالح υ: [هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] [هود:61]، وفي مقام آخر بعد أن ذكرهم بنعم الله تعالى وآلائه عليهم، حذّرهم من الإفساد في الأرض، التي هيّأها الله لهم، فيقابلون النّعمة بالكفران: [فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ] [الأعراف:74]. وهذا بعد أن دعاهم إلى التّوحيد، الذي هو الأساس الأوّل لدعوات الرّسل جميعاً.

يقول العلّامة أبو حيّان: (ذكَّر صالح قومه بما ذكَّر به هود قومه، فذكر أولاً نعماً خاصّة، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمّة التي سبقتهم، وذكر هو لقومه ما اختصُّوا

---

(1) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص31- 32.

به من زيادة البسطة في الخلق، وذكر صالح لقومه ما اختصُّوا به من اتّخاذ القصور من السّهول، ونحت الجبال بيوتاً، ثمّ ذكر أنعماً عامّة بقولهما: [فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ]، ومعنى [وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ] [الأعراف: 74] أنزلكم بها، وأسكنكم إياها، والمباءة المنزل في الأرض، وهو من باء أي رجع)[1].

ونجد هذا التّحذير من الإفساد في رسالة نبي الله شعيب، الذي بعثه الله إلى أهل مدين، فبعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده، وتَرْكِ عبادة ما سواه، دعاهم إلى إقامة العدل في معاملاتهم، وتَرْكِ الظّلم والإفساد في الأرض، حتى لا ينزل بهم عذاب الله تعالى. اقرأ قوله تعالى في سورة هود: [وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ] [هود: 85]، وقوله: [وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ] [الأعراف:86]، فحذَّرهم من عواقب المفسدين من قبلهم، وكيف نزل بهم عقاب القدر الأعلى، الذي يمهل ولا يهمل، ويملي للمفسدين ثمّ يأخذهم أخذاً أليما شديداً.

قال أبو حيّان في تفسيره: (لما أُمروا بالأكل والشرب من رزق الله، ولم يقيِّد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب، كان ذلك إنعاماً وإحساناً جزيلاً إليهم، واستدعى ذلك التبسُّط في المآكل والمشارب، وأنه ينشأ عن ذلك القوّة الغضبية والقوّة الاستعلائيّة، نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك، وهو الفساد، حتى لا يقابلوا تلك النّعم بما يكفرها، وهو الفساد في الأرض) [2].

وقد اجتهد بعض المفسّرين أن يحدِّدوا نوع الفساد المنهي عنه في الآية الكريمة، والأوْلى عندي إبقاء اللفظ على عمومه وإطلاقه ليشمل كلَّ فساد مادي أو معنوي، واقع أو متوقَّع.

أساليب القرآن في النّهي عن الفساد:

---

(1) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان (329/4).

(2) البحر المحيط (230/1، 231).

وقد أكّد الإسلام النَّهيَ عن الفساد في الأرض بأساليب شتّى، منها النّهي عن الإفساد، كما في الآيات السّابقة. ومنها: التّنفير من النّماذج المفسدة، والتّحذير منها ومن مشابهتها، كما في قوله في ذمِّ المنافقين: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ] [البقرة:11، 12]. ومنها: إعلان أنّ الله تبارك وتعالى [وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ] [البقرة:205]، [وَلَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ] [المائدة:64]، وأنّه [لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ] [يونس:81].

والإفساد في الأرض: يشمل الإفساد المادي بتخريب العامر، وإماتة الأحياء، وتلويث الطّاهرات، وتبديد الطّاقات، واستنزاف الموارد في غير حاجة ولا مصلحة، وتعطيل المنافع وأدواتها.

كما تشمل الإفساد المعنوي، كمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، والكفر بنعمته، والتمرُّد على شريعته، والاعتداء على حرماته، وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل، ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار، وتأخير الأخيار، وتجبُّر الأقوياء على الضعفاء، وقسوة الأغنياء على الفقراء.

إحياء الموات:

وممّا جاءت به شريعة الإسلام من عمارة الأرض: (إحياء الموات)، و(إحياء الموات) تعبير إسلامي مأخوذ من الحديث النّبويّ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[1].

والأرض الميتة هي الأرض البور، التي لا زراعة فيها ولا بناء، سمَّاها الرسول ρ "ميتة" للإشارة إلى أنّ الأماكن والأراضي تموت وتحيا كما يحيا الإنسان ويموت، و(موت) الأرض إنما يكون بتركها بوراً، لا ينبت فيها نبات، ولا يُغرس فيها شجر، ولا يقوم فيها بناء ولا عمران. و(حياة) الأرض بإجراء الماء فيها، وإنبات الزّرع، وغرس الشّجر، وإقامة أسباب السّكن والمعيشة.

---

(1) رواه أحمد وأبو داود عن سعيد بن زيد.

وقد اقتبس النّبيّ ρ معنى الموت والحياة للأرض من القرآن الكريم، في أكثر من آية، كما في قوله تعـالى : [وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ] [يس:33].

ولا شكّ أنّ من أعظم الموارد التي عُني الإسلام بالمحافظة عليها، وعمل على تنميتها، والاستفادة من خيراتها: الأرض الزّراعيّة التي هي مصدر القوت والطعام للإنسان، كما قال تعالى: [فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ] [عبس:24-32].

وقد اعتبر الإسلام من أفضل الأعمال التي حثَّ عليها، ورغَّب فيها، ووعد فاعليها بأعظم المثوبة: استصلاح الأراضي البور؛ لما فيه من توسيع الرّقعة الزّراعيّة، وزيادة مصادر الإنتاج. قال رسول الله ρ: «مَن أحيا أرضا ميتة فهي له، وما أكلت العافية (طلّاب الرزق) منها فهي له صدقة»[1]، قال أبو عبيد: العافية: من السّباع والطّير والنّاس وكل شيء يعتافه.

وفي الحديث نجد أن النّبيّ ρ قرَّر (ملكية الأرض) لِمَن أحياها، تشجيعاً على الإحياء، وتحريضاً عليه. ولا ريب أنّ حبَّ التّملّك دافع فطري قوي في نفس الإنسان، فإذا وجد أن كلَّ ما يحييه ويعمره من الأرض يملكه، دفعه ذلك إلى تحريك الهمَّة، وتقوية النّشاط في توسيع دائرة الإحياء والعمران للأرض، حتى تدخل في ملكه.

وإحياء الموات يكون: بالغرس والزّرع، وذلك لا يكون إلّا بإجراء الماء إليها من نهر أو بحيرة أو عين، أو حفر بئر بها أو نحو ذلك، إذ لا يحيا الغرس والزّرع إلّا بالماء.

---

(1) رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن جابر.

ويكون الإحياء كذلك: بالبناء عليها، وإقامة مساكن فيها للنّاس، فالأرض الموات، كما تحيا بالنّبات والغرس، تحيا بالبناء والسّكن، ولهذا نرى النّاس في عصرنا يتَّجهون إلى الصّحاري ليقيموا فيها المباني، فيستفيدوا منها أمرين:

- إحياء الصّحراء بالبيوت والمساكن، فتدبُّ فيها الحياة من كلّ جانب.
- وتوفير الأرض الزّراعيّة، وقد أضحت المباني تجور عليها من كل جانب.

ويكون الإحياء كذلك بإقامة المصانع في الأرض، فالمصانع كالمزارع، مطلوبة لحياة النّاس، وقد قال تعالى: [وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ] [الحديد:25]، وقوله: [فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ] إشارة إلى الصناعات الحربيــة، وقوله: [وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ] إشارة إلى الصّناعات المدنيَّة.

ويجب أن تكون هذه المصانع بعيدة عن المناطق السّكنيّة، حتى لا تؤذي النّاس بما قد يترتَّب عليها من أدخنة، أو من روائح يكرهها النّاس، أو من ضجيج وضوضاء نتيجة تشغيل الآلات الكبيرة، وهو ملوِّث آخر من ملوّثات البيئة. وقد قرَّر الإسلام: أن "لا ضرر ولا ضرار".

وكان من سياسة النّبيّ ρ ، وخلفائه الرّاشدين: الإقطاع من هذه الأراضي البور، لبعض الرّجال الذين أدَّوا خدمات ممتازة للدّولة الإسلاميّة، فهي مكافأة لهم من جهة، وتشجيع على استصلاحها وعمرانها من جهة أخرى.

وما قرب من العامر وتعلّق بمصالحه، مثل طرقه وفنائه، ومسيل مائه، ومرعى أنعامه، ومحتطبه، وحريمه، ونحو ذلك من كل ما يحتاج إليه (العامر) ويعنون به: المدينة أو القرية، لعمل مدارس أو جامعات أو مصانع أو مستشفيات أو أندية أو مساحات خضراء، فلا يملك ذلك بالإحياء[1]، لأنه لا يعتبر مواتاً في هذه الحالة، لأنّه لتعلّقه بمصالح البلد العامر الحيّ، يعتبر في حكم الحي بسببه، فلا يدخل في الحديث، فإنّ ما جاور الشّيء يأخذ حكمه.

---

(1) انظر: المبدع شرح المقنع لابن مفلح (250/5).

بل ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ القريب من العامر لا يملك بالإحياء، وإن لم يتعلّق به مصالحه في الحال، إذ هو بصدد أن يُحتاج إليه في المستقبل لقربه، وتنزيلاً للضّرر في المآل منزلة الضّرر في الحال، إذ هو بصدد أن يحتاج إليه في المآل[1]. وهذا هو الذي يجب أن نرجِّحه في عصرنا، لسرعة تطوُّر العمران، واتّساع حاجات النّاس، فلا بدّ من ترك مساحات فسيحة حول العمران من أجل حاجات المستقبل، التي قد لا نتوقّعها اليوم.

ومن تحجَّر مواتاً، أي شرع في إحيائه ولم يتمّه لم يملكه بذلك، لأنّ الملك يكون بالإحياء، ولم يتحقّق. وهو أحقّ به من غيره ووارثه بعده، ومَن ينقله إليه بالهبة، وليس له بيعه.

فإن لم يتم إحياؤه، قيل له: إمّا أن تحييه وإمّا أن تتركه ليحييه غيرك، لأنّه ضيَّق على النّاس في حقٍّ مشترك بينهم، فلم يمكَّن منه. فإن طلب الإمهال أمهل الشّهرين والثّلاثة. ومن قُطِعَ له من هذه الأرض مساحة معيّنة، ثمّ تركها بغير أن يعمّرها ويصلحها، كان لولي الأمر أن ينتزعها منه، ويعطيها لغيره ممن يقوم بإحيائها.

وقد روى أبو عبيد وغيره، عن بلال بن الحارث المزني، أن رسول الله ρ أقطعه العقيق - أرضا بالمدينة - فلمّا كان زمان عمر، قال لبلال: إن رسول الله ρ، لم يُقطِعك لتحتجزه عن النّاس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته، وردَّ الباقي[2].

وكان من سنّته تشجيع الأفراد العاملين على زيادة الإنتاج، كنافع أبي عبد الله الذي كتب إلى واليه بالبصرة في شأنه يقول: أمّا بعد، فإنّ أبا عبد الله ذكر أنه زرع بالبصرة ... وافتلّى أولاد الخيل (رعاها بالفلاة) حين لم يَقْتِلها أحد من أهل

---

(1) المصدر السابق (251/5).

(2) الأموال ص290.

البصرة، وإنه نعم ما رأى، فأعنه على زرعه وعلى خيله، فإني قد أذنتُ له أن يزرع، وآته أرضه التي زرع ... ولا تعرض له إلّا بخير[1].

وجمهور الفقهاء لا يشترطون إذن الإمام أو ولي الأمر فيما يحييه من الأرض، ويعتبرون أنّ الحديث أعطى إذناً عاماً بالإحياء والتّملّك لمن أحيا. وذهب أبو حنيفة إلى أنّ الإحياء الذي به تتحقّق الملكيّة هو الذي يكون بإذن الإمام، وأنّ الرّسول قاله بوصفه إماماً للأمّة، ورئيساً للدّولة.

(3)

النّظافة والتّطهير:

ومن الوسائل التي حرص عليها الإسلام في حفظ البيئة: العناية بالنّظافة، والحقيقة أنّ موقف الإسلام من النّظافة موقف لا نظير له في أيِّ دين من الأديان، فالنّظافة فيه عبادة وقُربة، بل فريضة من فرائضه.

إنّ كتب الشّريعة في الإسلام تبدأ أوّل ما تبدأ بباب عنوانه (الطّهارة) أي النّظافة، فهذا أوّل ما يدرسه المسلم والمسلمة من فقه الإسلام. وما ذلك إلّا أنّ الطّهارة هي مفتاح العبادة اليوميّة (الصّلاة) كما أنّ الصّلاة مفتاح الجنّة، فلا تصحّ صلاة المسلم ما لم يتطهَّر من الحدث الأصغر بالوضوء، ومن الحدث الأكبر بالغسل. والوضوء يتكرَّر في اليوم عدَّة مرات، تُغسل فيه الأعضاء التي تتعرَّض للاتساخ والعرق والأتربة، قال تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ] [المائدة:6]، وقال ρ: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور"[2].

---

(1) من هامش الأموال عن البلاذري ص346، وفي الأموال نحوه ص 277.

(2) رواه مسلم عن ابن عمر.

ومن شروط صحّة الصّلاة كذلك: نظافة الثوب والبدن والمكان من الأخباث والقاذورات، ومن ذلك: نظافة السبيلين بالاستنجاء والغسل بالماء، إن تيسَّر، وإلّا فبالمسح ولو بالأحجار ونحوها في الصّحراء (الاستجمار).

وفوق ذلك أشاد القرآن والسنّة بالنّظافة وأهلها، فقال تعالى: [إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ] [البقرة:222] وأثنى على أهل مسجد قباء فقال: [فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ] [التّوبة:108].

وقال النّبيّ ρ: «الطّهور شطر الإيمان»[1] أي نصفه. ومن ذلك شاعت بين المسلمين هذه الحكمة التي ينطق بها خاصَّتهم وعامّتهم ولا يعرف لها مثيل عند غيرهم: وهي (النّظافة من الإيمان).

وقد عني النّبيّ ρ بنظافة الإنسان، فدعا إلى الاغتسال، وخاصّة يوم الجمعة: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»[2]، وعني بنظافة الفمّ والأسنان خاصّة، فرغب في السّواك أعظم التّرغيب: «السّواك مطهرة للفم، مرضاة للرّب»[3]، بجوار الأمر بالمضمضة والاستنشاق في الوضوء؛ حتى اعتبرهما المذهب الحنبلي من فرائض الوضوء.

وأمر بنظافة الشعر: «مَن كان له شعر فليكرمه»[4]، وبإزالة الفضلات من الإبط والعانة وتقليم الأظافر، واعتبر ذلك من سنن الفطرة[5].

وعني بنظافة البيت وساحاته وأفنيته فقال: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال، طيب يحب الطيّب، نظيف يحبّ النّظافة، فنظّفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود»[6]، وعني بنظافة الطّريق، وتوعّد كلَّ مَن ألقى فيه أذى أو قذراً: «من آذى المسلمين

---

(1) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري.
(2) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري.
(3) رواه أحمد عن أبي بكر.
(4) رواه أبو داود عن أبي هريرة.
(5) متفق عليه عن أبي هريرة.
(6) رواه الترمذي عن سعد بإسناد حسن.

في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»[1]، وجعل أدنى شعب الإيمان: «إماطة الأذى عن الطريق»[2]، أي تنحيته وإزالته، والمراد بالأذى: كل ما يؤذي المار كالحجر والشّوكة والعظم والنّجاسة والقذر ونحو ذلك.

وعن أبي هريرة τ، عن النّبيّ ρ: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصْنَ شوك فأخَّره، فشكر الله له فغفر له»[3]. وفي رواية لمسلم: «لقد رأيتُ رجلا يتقلَّب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطّريق كانت تؤذي المسلمين».

ونجد آثار هذه التّوجيهات النّبويّة في حياة جيل الصحابة وأبنائهم وتلاميذهم واضحاً للعيان: فعن المستنير بن أخضر بن معاوية، عن أبيه قال: كنتُ مع مَعقِل بن يسار τ في بعض الطّرقات، فمررنا بأذى فأماطه - أو نحَّاه - عن الطّريق، فرأيتُ مثله، فأخذته فنحَّيتُه، فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي، ما حملك على ما صنعت؟ قلت: يا عم، رأيتُك صنعتَ شيئاً، فصنعتُ مثله. فقال: سمعتُ رسول الله ρيقول: «مَن أماط الأذى عن طريق المسلمين كُتبت له حسنة، ومَن تقبلت منه حسنة دخل الجنة»[4].

وقد ذكر الحافظ المنذري في كتابه (التّرغيب والتّرهيب) أكثر من حديث في التّرغيب في تنظيف المساجد وتطهيرها منها ما رواه أبو هريرة τ، أنّ امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد ففقدها رسول الله ρ، فسأل عنها بعد أيّام، فقيل له: إنها ماتت. فقال: «فهلا آذنتموني». فأتى قبرها فصلّى عليها[5]. فانظر: كيف اهتمَّ الرسول بأمر هذه المرأة والسّؤال عنها، والصّلاة على قبرها، لما كانت تقوم به من تنظيف المسجد. فالحديث يدلّ على اهتمام المرأة بالمسجد ونظافته في عصر النبوة. فلا

---

(1) رواه الطبراني عن حذيفة بن أسيد.
(2) متفق عليه.
(3) البخاري (652)، ومسلم (1914).
(4) رواه الطبراني في الكبير.
(5) متفق عليه.

عجب أن سأل الرسول ρ عنها، حين افتقدها، ولام أصحابه حين لم يعلموه بموتها، وصلّى عليها في قبرها بعد موتها.

وعن أبي سعيد الخدري τأنّ رسول الله ρ كان تعجبه العَرَاجِينُ أن يمسكها بيده، فدخل المسجد ذات يوم، وفي يده واحد منها، فرأى نخامات في قبلة المسجد فحَتَّهُنَّ حتى أنقاهن، ثم أقبل على النّاس مُغْضَبًا فقال: «أيحب أحدكم أن يستقبله رجل فيبصق في وجهه؟ إنّ أحدكم إذا قام إلى الصّلاة فإنما يستقبل ربه، والمَلَكُ عن يمينه، فلا يبصق بين يديه، ولا عن يمينه» الحديث. رواه ابن خزيمة في "صحيحه".

وقد ضرب النّبيّ ρ المثل لهم، فحرص على إزالة الأذى والقذر بنفسه[1]، حتى يعلّمهم العناية بالنّظافة عامة، وبالمساجد خاصّة، لأنّها ملتقى المسلمين، ومظهر حضارتهم، ووجه دينهم، وعلى الأخص جهة القبلة، لما ترمز إليه من معان كريمة نبّه عليها الرسول الكريم.

(4)

المحافظة على الموارد:

نتحدّث هنا عن المحافظة على الموارد: بوصفها دعامة من الدّعائم المهمّة في الحفاظ على البيئة وصلاحها ونمائها وبركتها. فـ(الموارد) نعم من الله تعالى على خلقه، فواجبهم أن يقوموا بشكرها، ومن شُكْرها المحافظة عليها من التّلف أو الخراب أو التلوث أو غير ذلك، مما يعتبر نوعاً من الإفساد في الأرض.

وقد ذكرنا أنّ الإفساد في الأرض قد يكون مادياً، وقد يكون معنوياً، وكلاهما شر يبغضه الله تعالى، ولا يحب أهله.

فما هي تلك الموارد؟ هناك الموارد الطبيعيّة، وهي هبات الله في الطّبيعة التي يمكن أن تتحوّل إلى ثروة: هي الغلاف الغازي بعناصره المختلفة، وهي

---

(1) رواه ابن خزيمة.

الغلاف المائي، وهي الغطاء النّباتي الطّبيـعي في صورة مختلفة. وبمعنى آخر: هي الموارد الزّراعيّة ـ المناخ والتّربة ـ وهي الموارد النّباتيّة في صورة الغابات والحشائش، وهي الموارد البحريّة سواء أكانت في مناطق الرّصيف القاري أو في الأعماق المحيطة، وهي في النّهاية: الموارد التّعدينيّة في صخور الأرض ومعادنها المختلفة، ولعلّ هناك موارد أخرى لم نستطع تحويلها إلى ثروة حتى الآن، كالموارد الشّمسيّة أو الجاذبيّة مثلاً[1].

هذا ما يقرّره الاقتصاديون، فإذا تأمّلنا في القرآن الكريم وجدناه يدفعنا دفعاً إلى استغلال هذه الموارد. إنه ينبّه عقولنا، ويلفت أنظارنا بقوة إلى هذا الكون المحيط بنا، بمائه وهوائه، وبحاره وأنهاره، ونباته وحيوانه وجماده، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، كلّ ذلك مسخَّر لمنفعة الإنسان، تكريماً من الله له ونعمة عليه، فعليه أن ينتفع بما سخّر الله له إن كان من أهل الفكر والعلم. نقرأ في ذلك قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً] [لقمان:20].

الثّروة الحيوانيّة:

نَبَّه القرآن على الثّروات الطّبيعيّة ـ في مختلف صورها ـ في كثير من آياته وسوره، ففي سورة كسورة النّحل تنبيــه على الثّروة الحيوانيّة وما ينتج عنها من لحوم وألبان وجلود وأصواف وغيرها، فقال تعـالى: [وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ] [النّحل:5].

الثّروة النّباتيّة:

وفي السّورة نفسها تنبيه على الثّروة النّباتيّة بقوله تعالى: [هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ

---

(1) قواعد الجغرافية الاقتصادية للدكتور نصر السيد نصر، ص26.

وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] [النّحل:10، 11]، وفيها إشارة إلى صناعة الحلويات وما يتّصل بها، والنّحل وما ينتج عنه.

الثّروة البحريّة:

وفي السّورة نفسها لفت إلى الثّروة البحريّة، وإمكانيّة استغلالها، في صيد الأسماك واللآلئ والانتفاع بها في التّجارة المحليّة والدّوليّة: [وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] [النّحل:14].

الثّروة المعدنيّة:

ومن أبـرز ما ورد في القرآن الكريم من التّنبيـه على الثّروة المعدنيّة قولـه تعالى: [وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ] [الحديد:25]، وفي الآية دلالة على أهمّيّة هذا المعدن الخطير (الحديد) في حياة البشر في النّاحيتين: العسكريّة والمدنيّة.

وممّا له مغزى عميق أن تسمَّى السّورة التي ذُكرت فيها هذه الآية سورة (الحديد).

كما ذكر القرآن "القِطْر" في قصة ذي القرنين، وذكره كذلك في قصـة سيدنا سليمان υ.

الشّمس والقمر:

وأكثر من ذلك كلّه تصريح القرآن الكريم في غير سورة: أنه سخَّر للإنسان الشّمس والقمر، وهذا التّسخير يمدُّ حبل الأمل للإنسان، ويشبع من طموحه في السّيطرة على الفضاء وتسخيره بأمر الله، والانتفاع بالطّاقة الشّمسيّة، والوصول إلى

القمر، بل الشّمس وتسخيرهما لمنفعة الإنسان، قال تعالى: [وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِ] [إبراهيم:33][1].

المحافظة على الثّروة الحيوانيّة:

ومن أهمّ ما جاء به الإسلام في تنمية البيئة والحفاظ عليها وعلى مواردها: عنايته بالثّروة الحيوانيّة. وعناية الإسلام بالثّروة الحيوانيّة من جهتين:

الأولى: أنّها كائنات حيّة تحسّ وتتألم، ولها حاجات وضرورات ومطالب، لهذا كانت رعايتها ابتغاء وجه الله تعالى، وطلباً لمرضاته ومثوبته، وخشية من عقابه عزَّ وجلَّ، فهو من مراعاة المُثُل الأخلاقيّة العليا لذاتها، التي تميَّزت بها الشّريعة الإسلاميّة[2].

والجهة الثّانية: أنها تمثّل ثروة للإنسان، ومورداً هامًّا من موارد البيئة، وخصوصاً الحيوانات المستأنسة منها، والدّواجن ونحوها، فإضاعتها تعني إضاعة مال الإنسان، وهو منهيٌّ عنه.

لهذا جاء التّوجيه النّبوي الكريم يحذّر من إضاعة هذه الحيوانات، أو القسوة عليها، أو العبث بها، إرضاء لنزوات الإنسان وغروره وأنانيته.

تعطيل الثّروة الزّراعيّة والحيوانيّة من عمل الشّرك:

ولقد حمل القرآن على نوع من الفساد شاع لدى مشركي العرب، وهو تعطيل بعض الموارد الزّراعيّة والحيوانيّة، بناء على أوهام وأباطيل شركيّة، ما أنزل الله بها من سلطان، وناقشهم مناقشة مفصّلة: [وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ] [الأنعام: 138].

---

(1) انظر: كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) ص131-134، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة.

(2) انظر: كتابنا (مدخل لدراسة الشريعة) فصل (الأخلاقية) من خصائص الشريعة.

الوعيد على قتل عصفور عبثاً:

وأكّدت السُّنَّة الأمر بالمحافظة على الموارد بأساليب شتَّى من التّرغيب والتّرهيب، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: " من قتل عصفوراً عبثاً، عجّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إنّ فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعة "[1].

والحديث يدلّ دلالة قوية على احترام كلِّ ذي رُوح من الطّير والحيوان، ومنع قتله لغير حاجة ولا منفعة معتبرة، كما يرشد إلى المحافظة على موارد الثّروة، وعدم تبديدها باللهو والعبث، أي لغير منفعة اقتصاديّة. بالإضافة إلى ما يدلّ عليه من المحافظة على البيئة بكلِّ ما فيها من الكائنات الحيَّة، التي أصبح التّقدّم التكنولوجي خطراً عليها.

وفي هذا الهدْي النَّبوي تنديد بحملات الصيد أو (القنص) التي يقوم بها كثير من أهل الثّراء، الذين يتَّخذون من الصّيد وسيلة للهو، وتزجية أوقات الفراغ، وصيد الغزلان وبعض الطّيور في أحيان كثيرة لغير الأكل، بل للعبث والتلهِّي.

الحفاظ على الحيوانات من العدوى:

ومن التّوجيهات النّبويّة حديث: «لا يوردن مُمْرض على مُصِح»[2].

والـمُمْرِض: صاحب الإبل المريضة بداء الجرب. وَالـمُصِح: صاحب الإبل الصّحيحة السّليمة. فعندما تورد الإبل للشّرب، يجب على صاحب الإبل المريضة ألّا يوردها على الإبل السّليمة، فتحتكَّ بها فتعديها، وهذا توجيه لوقايتها من المرض، فإذا أصيبت، فيجب أن تُعالج حفاظاً عليها، باعتبارها كائناً حيًّا من ناحية، وباعتبارها مالاً نامياً من ناحية أخرى، ولا يتمُّ هذا الواجب إلّا بطبيب بيطري متخصِّص، فهو مطلوب شرعاً.

إيّاك والحلوب:

---

(1) رواه النسائي عن الشريد الثقفي.

(2) متفق عليه عن أبي هريرة.

ومن روائع ما ورد في السّنّة في المحافظة على الموارد: قول النّبيّ ρ لمضيفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «إياك والحلوب»[1]. قاله له حينما أخذ الرّجل المدية ومضى ليذبح.

ومعنى الحديث: أنّه عليه الصلاة والسلام نهى المضيِّف أن يعمد إلى شاة ينتفع بدرِّها ولبنها، لأنها حلوب، فيذبحها، فيخسر درَّها وحليبها، ويخسرها معه المجتمع، ويغني عنها شاة أخرى غير حلوب.

وربما يقول بعض الناس: وماذا يؤثِّر ذبح شاة في موارد مجتمع أو أمة؟

والجواب: أنّ الرّسول الكريم يربّي الأمة على قِيم وأخلاق معيَّنة ينبغي أن يلتزم بها الجميع، ورعاية هذه القِيم والأخلاقيّات على مستوى الأمّة ذو مردود هائل، عند مَن يتدبَّرون الأمور.

الانتفاع بجلد الميتة:

وأكثر من ذلك قوله لأصحابه، وقد رأى شاة ميتة: "لِمَن هذه الشّاة؟". قالوا: إنها شاة لمولاة ميمونة، أم المؤمنين. قال: "هلَّا انتفعتم بجلدها؟". قالوا: إنّها ميتة، قال: "إنّما حَرُم أكلها"[2].

فهو ينبِّههم على الاستفادة بجلد الشّاة - فروتها - بأن يُدبغ، فيطهر بالدباغ، وينتفع به.

المحافظة على الأجناس الحيّة من الانقراض:

ومن التّعاليم التي جاء بها الإسلام في المحافظة على البيئة، ما سبق زمانه، حتى إن المرء في عصرنا ليدهش له، وهو المحافظة على أجناس المخلوقات الحيَّة من الفناء والانقراض، فإنّ الله تعالى لم يخلقها إلّا لحكمة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها.

---

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(2) متفق عليه عن ابن عباس.

وقد تحدّثت يوماً مع أحد علماء البيئة المختصين، وذكرت له مدى عناية الإسلام بالبيئة وتحسينها، والمحافظة عليها، وأوردت بعض مظاهر ذلك وأدلّته، فراعه ذلك وأعجبه، وسألني: هل يمكن أن نجد في النّصوص الشّرعيّة ما يؤيّد فكرة المحافظة على بعض الأنواع من الحيوانات أو الطّيور أو غيرها من الانقراض؟

قلتُ: نعم، نجد ذلك صريحاً في حديث رسول الله ρ، الذي يقول في صراحة وجلاء: «لولا أنّ الكلاب أمّة من الأمم لأمرتُ بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم»[1].

فهذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى حقيقة كونية قرَّرها القرآن الكريم، وهي أنّ الكائنات الحيَّة الأخرى - غير العاقلة - لها كينونتها الاجتماعيّة الخاصّة، التي تميِّزها عن غيرها، وتربط بعضها ببعض. وبتعبير القرآن الكريم : كلٌّ منها أمّة مثلنا. يقول الله تبارك وتعالى: [وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم] [الأنعام:38]. و(المثلية) التي ذكرها القرآن الكريم لا تقتضي المشابهة في كلِّ شيء، فالمشبه لا يقتضي أن يكون كالمشبَّه به في جميع الوجوه، بل في وجه معيَّن يقتضيه المقام، وهو هنا (الأمميّة)، فكلّ منها أمة لها كيانها واحترامها، وحكمة الله تعالى في خلقها تمييزها عمّا سواها من الأجناس والأمم الأخرى.

وما دامت أمّة، فلا ينبغي أن تستأصل، لأنّ هذا ينافي حكمة الله سبحانه في خلقها، فإنّ الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً.

ذكرتُ ملخّص هذا الكلام لأستاذ البيئة الذي سألني، فقال: عجيب أن يكون عندنا مثل هذه الكنوز الثّمينة، ولا نطَّلع عليها، ولا نعرفها.

قلت له: إنّ عندنا من هذه الكنوز الكثير الكثير في كلِّ جانب، ولكن هذه الكنوز الدفينة عادة تحتاج إلى مَن يفتش عنها في مظانِّها، ويزيح التّراب والأحجار عنها، كما يفعل رجال الآثار في البحث عنها في باطن الأرض، حتى يجدوها

---

(1) رواه أبو داود عن عائشة.

مطمورة تحت الثّرى، أو بين الأتربة والصّخور، ومَن جدَّ وجد، ولكلٍّ مجتهد نصيب[1].

نموذج من عناية الفقه الإسلامي بالحيوان:

ولقد قننت هذه العناية بالحيوان في فقهنا الإسلامي بكلِّ مذاهبه، التي وضّحت أنّ لهذه الحيوانات حقوقاً يجب أن ترعى وتؤدَّى.

وقد تحدّثت كتب الفقه على ما يجب على مالك الحيوان، من إطعامها وسقيها، فعليه بيعها، وعلى حرمة تحميل البهيمة بما يشقّ عليها، أو حلبها حلباً يضرّ ولدها، وضرب وجهها، أو وسمه، وإطعامها فوق طاقتها لأجل التّسمين، وقطع ذنبها، وكل ما يضرّ بالحيوان[2].

وهكذا نجد فقهنا الإسلامي يتعمّق في القضيّة، حتّى يدخل في هذه التّفصيلات الكثيرة، التي لا تكتفي برعاية الجانب المادي للحيوان، بل بالجانب الأدبي، حتى إنه يحرم لعن البهيمة، كأنما هي كائن يحس ويعقل. وهي ذروة في التّعامل لم ترتقِ إليها أي فلسفة من الفلسفات أو دين من الأديان.

ومن اهتمام المسلمين بالحيوانات: اهتمام علم (الحسبة) - وقد أُلّفَ فيه عدد من الكتب في مختلف المذاهب الفقهيّة - بموضوع الحسبة على البياطرة، ويقصد بهم الأطبّاء الذين يعالجون الحيوانات، وهي - كما قالوا - أصعب علاجاً من أمراض الآدميين، لأنّ الدّواب ليس لها نطق تعبِّر به عمّا تجده من المرض والألم، وإنما يستدلُّ على عِللها بالحسِّ والنظر، فيحتاج البيطار إلى حسن بصيرة بعِلل الدّواب وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلّا مَن له معرفة وخبرة، فلا يتهجَّم على الدّواب بَفَصْد أو قطع أو كَيٍّ وما أشبه، بغير خبرة، فيؤدي إلى إهلاك الدّابّة أو عطبها، فيلزمه الضّمان من طريق الشّرع، ويعزِّره المحتسب من طريق السّياسة.

---

(1) انظر: كتابنا (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة).

(2) مطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى (5/262-294).

وذكر العلماء هنا تفاصيل كثيرة مهمّة، تدلُّ على مدى عنايتهم بهذا الأمر[1].

المحافظة على الثّروة النّباتيّة:

ومن الموارد المهمّة: الثّروة النّباتيّة التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان في غذائهما، فقد خلق الله النّبات متاعاً ومنفعة للآدميين ولأنعامهم التي تخدمهم وهي صحيحة، ويأكلونها وهي ذبيحة، فهي في النّهاية متاع لهم في الحقيقة. قال تعالى: [ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ] [طه:53، 54].

وفي آيات أخرى لفت الأنظار ونبّه العقول إلى ما في الزّرع من بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، والذي يرى الإنسان فيه الجمال المبهج للأنفس، والذي يسرُّ الناظر بينعه.

وقد ذكر علماء النّبات المختصّون والمتتبعون له ولفصائله وأنواعه وألوانه في شتّى بقاع الأرض: أنّ هناك نحو مائتين وخمسين ألفاً من أنواع النّبات وألوانه!

هذه الثّروة النّباتيّة التي توفّر للإنسان الثّمر الطّيّب، والظّل الظّليل، والمنظر الجميل، ومنافع كثيرة بدأنا ندركها اليوم، إنما هي نعم من الله تبارك وتعالى يجب أن تقابل بالشّكر للمنعم جلَّ شأنه، ومن شكره سبحانه عليها أن ننمّيها ونحافظ عليها، ونقوم بحسن رعايتها، حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وألّا نهملها فتضيع وتهلك وتذوى، ولا نقطعها لغير حاجة أو مصلحة معتبرة، بل نزيد مساحتها بالغرس والزّرع ما استطعنا، وألّا نسرف في استهلاكها بغير حساب، وأن نعاملها بالإحسان والرّفق، فإن لم نفعل ذلك، فقد كفرنا نعمة الله تعالى، ومن كفر نعمة الله فإنّ الله شديد العقاب.

قاطع السِّدر في النار:

---

(1) انظر: معالم القربة في أحكام الحسبة للقرشي ص24-27.

يؤكّد هذا التّوجّه الحديث الشّريف: «مَن قطع سِدْرة صوَّب الله رأسه في النّار»[1].

قال أبو داود بعد أن روى هذا الحديث: يعني مَن قطع سدرة في فلاة، يستظلُّ بها ابن السّبيل والبهائم، عبثاً وظلماً، بغير حقٍّ يكون له فيها، صوَّب الله رأسه في النّار[2].

وفي هذا الوعيد الشّديد توجيه إلى المحافظة على الأشجار، ومنها أشجار البَرِّ والغابات، لما فيها من نفع كبير للبيئة، فلا يجوز أن تقطع إلّا بقدر وحساب، بحيث يغرس مكانها غيرها، ممّا يقوم بوظيفتها.

المحافظة على الثّروة المائيّة:

ومن أهمّ الموارد التي تجب العناية بها، والمحافظة عليها: الماء، أصل الحياة للإنسان والحيوان والنّبات، كما قال تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ] [الأنبياء:30].

الماء ثروة غالية نفيسة، ولكن النّاس لا يقدِّرونها حقّ قدرها، لأنّ الله تعالى هيّأها للنّاس بالمجان، في الأنهار والبحيرات والأمطار، كما قال تعالى: [وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَرَ] [إبراهيم:32].

ومن فضل الله تعالى على عباده أن جعل الأشياء الضروريّة للنّاس أرخص الأشياء، لأنّه هيّأها للنّاس بوفرة، مثل الماء والهواء والحرارة والضّياء. وهذا ما جعل كثيراً من النّاس للأسف لا يحسُّون بقيمة هذه النّعم إلّا إذا فقدوها، أو حرموا منها ولو جزئيّاً أو نسبيّاً، فيدركون حينئذ قدرها وفائدتها. وبضدِّها تتميَّز الأشياء.

---

(1) رواه أبو داود عن عبد الله بن حبشي، والمراد بالسدرة: شجرة السدر (النبق) التي يكثر وجودها في البراري.

(2) انظر سنن أبي داود (404/3).

ولكن ممّا ينبغي أن يُعلم: أنّ الماء خاصَّة لا يقبل الزّيادة والنّماء، مثل الثّروة النباتيّة، أو الثّروة الحيوانيّة، كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله: [وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ] [المؤمنون:18].

وإذا كانت الكائنات الحيّة - وعلى رأسها الإنسان - لا تستطيع أن تعيش بغير الماء، والماء محدود، فالواجب على البشر أن يحافظوا على هذا الكنز النّفيس، ولا يسيئوا إليه، بتلويثه، أو إفساده، أو إضاعته في غير وجهه، أو الإسراف في استهلاكه لغير حاجة حقيقية أو مصلحة لها اعتبارها عند العقلاء من النّاس.

ونحن إذا أمعنّا النّظر في تعاليم الإسلام وأحكامه نجد أنّه عني عناية بالغة بالحفاظ على الثّروة المائيّة، وتقدير نعمة الله فيها، وذلك من خلال عدَّة أحكام وتوجيهات ملزمة للمسلمين، بعضها تلزمهم أخلاقيّاً، وبعضها تلزمهم قانونيّاً. منها:

النّهي عن تلويث الماء:

من هذه التّوجيهات الإسلاميّة: النّهي عن تلويث الماء بأي سبب من أسباب التّلويث، مثل البول أو البراز في موارد الماء، والماء الرّاكد، والمستحم. منها: "اتقوا الملاعن الثّلاث: البراز في الموارد وقارعة الطّريق والظّل"[1]، "لا يبولن أحدكم في الماء الدّائم، الذي لا يجري، ثمّ يغتسل منه"[2].

والتّلويث في عصرنا لم يعد مقصوراً على البول والبراز ونحوها من الحاجات البشريّة التي يفعلها الدّهماء من النّاس، بل غدت هناك أنواع أشدّ خطراً، وأبعد أثراً، وأوسع نطاقاً، من هذا كلّه، وهي التّلويث بمخلّفات الصّناعة، والمواد الكيماويّة، ومنها مواد سامّة وقاتلة، ومخلّفات النفط والبواخر التي تغرق في البحار ويسيل ما فيها، فتلوّث المياه، وآثار الحروب وما تتركه من المواد المشعَّة، التي

---

(1) رواه أبو داود عن معاذ.

(2) رواه البخاري عن أبي هريرة.

تكون خطراً على الأسماك والأحياء المائيّة، وبالتّالي تصبح خطراً على الإنسان نفسه حين يأكلها.

خطر الإسراف في الماء:

وهناك خطر آخر يتجسّد في سوء استهلاك الماء، والإسراف في استخدامه، واعتباره مادّة رخيصة الثمن، مع ما له من قيمة لا يعرفها إلّا أولو الألباب من البشر. روى ابن ماجه، أن النّبيّ ρ ، مرَّ بسعد بن أبي وقّاص وهو يتوضّأ فقال له: «لا تسرف». فقال: أوفي الماء إسراف؟! قال: «نعم، وإن كنت على نهر جار»[1].

وروى أبو داود عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله ρ يقول: «إنّه سيكون قوم من أمّتي يعتدون في الطّهور والدّعاء»[2].

ومن المعروف شرعاً: أنّ استعمال الماء للشّرب مقدّم على استعماله للطّهارة والوضوء. وممّا يشير إلى ذلك ما رواه أبو هريرة أنّ رجلاً سأل النّبيّ ρ، فقال: يا رسول الله؛ إنّا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ρ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[3].

يفيد سؤالهم أنّ إرواء العطش مقدّم على الوضوء. وهو ما قرّره الفقهاء في أنّ خوف العطش يبيح للمسلم أن يتيمم مع وجود الماء المحتاج إليه للشّرب. كما أجاز ابن قدامة في (المقنع) التيمم لعطش يخافه على نفسه أو على رفيقه في السّفر أو بهيمته[4].

---

(1) رواه ابن ماجه عن سعد.

(2) رواه أبو داود.

(3) رواه أبو داود.

(4) المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (176/2، 177) بتحقيق التركي والحلو.

(5)

الحفاظ على صحّة الإنسان:

إذا كان مطلوباً منا أن نحافظ على موارد البيئة وثرواتها الحيوانيّة والزّراعيّة والمائيّة، فأولى من ذلك كلّه: المحافظة على الثّروة البشريّة، أي على الإنسان، خليفة الله في الأرض.

إذ لا ريب أنّ من أنفس الموارد، وأثمن الثّروات، وأغلاها قيمة: صحَّة الإنسان، فهو الغاية من المحافظة على الموارد، والمستفيد منها، وقد سخَّرها الله جميعاً له. وهو كذلك الوسيلة لذلك في المحافظة عليها.

وقد يظنُّ بعض النّاس أنّ الدّين لا يُلقي بالاً لصحَّة الإنسان، على اعتقاد أنّ الدّين يوجِّه عنايته للرُّوح لا للجسم، وللآخرة لا للدّنيا، وهذا - إن صحَّ في أديان أخرى - لا يصحُّ في الإسلام بحال من الأحوال، لأنّه دين يجمع بين الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

ولقد عُني القرآن، كما عُنيت السّنّة النّبويّة، بصحَّة الإنسان، وعافية بدنه ونفسه، عناية فائقة. وقدّمت نصوصها في ذلك معارف ومفاهيم، وقيماً ومبادئ تعتبر ثروة نفيسة عند كلِّ مَن يقدِّر الإنسان حقَّ قدره.

ونحن هنا نحاول أن نذكر أهمّ هذه المبادئ أو المفاهيم التي جاء بها القرآن وفصَّلتها السّنّة فيما يتعلّق بصحّة الإنسان وسلامته من الأدواء، وقدرته على الإنجاز والعطاء، ومقاومته للأسقام والأوبئة التي تهدِّد الإنسان في عافيته. وقد اقتبسنا معظمها من كتابنا (السّنّة مصدراً للمعرفة والحضارة).

الصّحّة نعمة:

أوّل هذه المبادئ أو القيم أو المفاهيم التي اهتمّت بها السنّة المحمديّة: اعتبار الصّحّة والعافية من أعظم نعم الله تعالى، التي يجب أن تقابل بالشّكر، المستوجب للمزيد. يقول تعالى: [لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] [إبراهيم:7]. وشكر هذه النّعمة يتمُّ بالمحافظة عليها، وفق سنن الله في الأسباب والمسببات، والاقتداء بالهدي النّبويّ في ذلك، فهو خير الهدي وأكمله.

يقول الإمام ابن القيم: (ومَن تأمل هدي النّبيّ ρ وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسنِّ والعادة، كان أقرب إلى دوام الصّحّة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولـمّا كانت الصّحّة والعافية من أجَلِّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحة، بل العافية المطلقة أجلّ النّعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظّاً من التّوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عمّا يُضادها.

وقد قال رسول الله ρ: «نعمتان مغبون فيها كثير من النّاس: الصّحة والفراغ»[1]، وقال رسول الله ρ: «مَن أصبح معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدّنيا»[2]، وقال: "أوّل ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النّعيم، أن يُقال له: ألم نُصِح لك جسمك، ونروك من الماء البارد"[3][4] اهـ.

المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف:

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه الترمذي.

(4) زاد المعاد (4/214-216) طبعة مؤسسة الرسالة.

وكما يحبُّ الإسلام من المسلم أن يكون جسمه سليماً معافى من الأمراض، يحبُّ له كذلك أن يكون جسمه قوياً مرناً، قادراً على الحركة والنّشاط، والقيام بأعبائه الدّينيّة والدّنيويّة. فالمؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضّعيف.

والإسلام يحثُّ المسلمين على كلِّ ما يكسبهم القوّة في أبدانهم. وإذا كان عصرنا قد نظم في ذلك ممارسات وتدريبات معيَّنة تساعد على تقوية الجسم، فينبغي على المسلم أن يأخذ منها ما يناسبه ويحتاج إليه، وهو مطلوب طلب استحباب، وقد يكون طلب إيجاب، إذا اشتدَّت الحاجة إلى ذلك، أو كان ذلك لازماً للدّفاع عن نفسه وأهله ودينه وأمّته، فإنّ ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.

وقد رغَّب النّبيّ ρ في العمل والنّشاط والحركة والبكور: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[1]، وحذَّر من التّباطؤ والتّكاسل والترهُّل، وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من العجز والكسل[2] وجعل من صفة المؤمن الملتزم أن يصبح طيّب النّفس نشيطاً، وصفة غيره أن يصبح خبيث النّفس كسلان[3]!

ودعا الإسلام إلى رياضة الأجسام بالسّباحة والرّماية وركوب الخيل، وما شابهها من ألوان الفروسيّة، ورغَّب الآباء في تربية أولادهم على ممارستها، وشرع التّنافس والمسابقات تشجيعاً على ذلك، وإغراء به. وسبق النّبيّ ρ بين الخيل، وأعطى السّابق، كما شرع المسابقة على الأقدام ونحوها.

تقرير حقّ الجسد على الإنسان:

---

(1) رواه أحمد.

(2) متفق عليه من حديث أنس.

(3) كما يتضح ذلك من حديث: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد". رواه البخاري عن أبي هريرة.

ومن المبادئ المهمّة التي جاء بها الإسلام في الحفاظ على صحّة الإنسان: تقريره (حقّ الجسد) على الإنسان.

فلأوّل مرّة في جوّ الدّين والرّوحانيّات، يسمع النّاس هذا التّوجيه المؤكَّد، الذي صدر من رسول الإسلام: «إنّ لبدنك عليك حقًّا». فلم يكن أهل الأديان يعنون بشأن الجسد، كما ذكرنا، فهو هنا يقرِّر هذا المبدأ الكبير والأصيل: أنّ للجسد على صاحبه حقًّا. ومن حقّه عليه أن ينظّفه إذا اتَّسخ، وأن يقوِّيه إذا ضعف، وأن يطعمه إذا جاع، وأن يسقيه إذا عطش، وأن يريحه إذا تعب، وأن يقيه من أذى الحرِّ والبرد، وأن يداويه إذا آلمته الأمراض، إلى غير ذلك ممّا يعرفه النّاس بالفطرة والممارسة.

ومن هنا لم يجُز للإنسان في نظر الإسلام إرهاق البدن بالعمل وطول السّهر والجوع - وإن كان ذلك في صورة عبادة الله تعالى - فقد أنكر النّبيّ ρ على رهط من أصحابه أراد أحدهم أن يقوم اللّيل فلا ينام، والثّاني أن يصوم فلا يفطر، والثّالث أن يعتزل النّساء فلا يتزوّج، وقال لهم: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوَّج النّساء، فمَن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وعن أنس: أن النّبيّ ρ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه (أي يمشي بينهما معتمداً عليهما) قال: «ما بال هذا؟». قالوا: نذر أن يمشي (أي إلى الحج) قال: «إنّ الله عن تعذيب هذا لغني» وأمره أن يركب[2].

ولم يصحّ عن النّبيّ ρ حديث في فضل الجوع مجرداً، إلّا ما كان من جوع الصّيام، بل ثبت عنه الاستعاذة بالله منه: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنّه بئس الضّجيع»[3].

---

(1) رواه البخاري وغيره عن أنس.

(2) متفق عليه.

(3) رواه أبو داود عن أبي هريرة.

تشريع الرّخص والتّخفيفات:

ومن عناية الإسلام بحقّ الجسم ما شرعته أحكامه من رخص في أداء الفرائض، إذا كان العمل بالعزائم يؤذي الجسم؛ كأن يسبب له مرضاً، أو يزيد في مرض قائم، أو يؤخّر الشّفاء منه، أو يؤدّي إلى مشقّة زائدة، فهنالك يدع الوضوء إلى التيمّم، والصّلاة قائماً إلى الصّلاة قاعداً أو مضطجعاً، وله الفطر في رمضان للسّفر أو للمرض: [وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ] [البقرة:185]، ورُخَصُ السّفر والمرض معروفة. إلى غير ذلك من أنواع التّخفيف إلى بدل أو إلى غير بدل، حتى أصبح مقرَّراً عند عامّة المسلمين: أنّ صحّة الأبدان مقدّمة على صحّة الأديان. وفي الحديث: «إنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[1].

العناية بالطّب والتّداوي:

والإسلام، كما عُني بالصّحّة، عُني بالطّبّ سواء كان طبًّا علاجياً أم وقائياً، وإن كانت عنايته بالوقائي أكثر لما هو معلوم: أنّ درهم وقاية خير من قنطار علاج.

ومن أهمّ أسباب الوقاية: ترك الإسراف، والاحتماء من التّخمة، فقد قال تعالى: [وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ] [الأعراف:31]، وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولا محالة فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه»[2].

إقرار سنّة الله في العدوى:

---

(1) رواه أحمد عن ابن عمر.

(2) رواه أحمد عن أبي هريرة.

ومن أهمّ ما جاء به الإسلام هنا: أنّه أقرَّ سنة الله في العدوى وأمر بالاحتراز والوقاية والعزل الصّحي من الأوبئة العامّة كالطّاعون ونحوه، بل وسَّع دائرة الوقاية حتى شملت الحيوان الأعجم.

وقال: "لا يوردن مُمْرِض على مُصِح"[1]، والممرض: الذي إبله مراض. والمصحّ: الذي إبله صحاح. ومعنى: لا يورد عليه: لا يخلط المريضة الجرباء بالصّحيحة أثناء ورود الماء.

وفي مسلم: أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النّبيّ ρ: ارجع فقد بايعناك[2]. وعند ابن ماجه: "لا تديموا النّظر إلى المجذومين"[3]. وقال في شأن الطّاعون، وهو وباء عام: «إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»[4].

وهذا حصر للوباء في أضيق نطاق.

احترام الطّبّ القائم على العلم والتّجربة:

قاوم الإسلام طبّ الكهنة والسّحرة، الذي قد يسمّى (بالطّبّ الرّوحاني)، واحترم الطّبّ القائم على الملاحظة والتّجربة والأسباب والمسبّبات، وأبطل ما أشاعته الوثنيّة الجاهليّة عند العرب وغيرهم حتى أهل الكتاب، من إطراح الأسباب الظّاهرة والسنن الكونيّة، والاعتماد على الأسباب الخفيّة، والرّقى المجهولة: من عزائم ورُقى غير مفهومة، وتمائم معلّقة، وشعوذة يروِّجها السّحرة والدجّالون، ولم يُبْقِ من الأدوية الرّوحانيّة إلّا ما فيه ذكر الله تعالى، والاستعاذة به، واللجوء إليه في صورة رُقى أو تعوذات أو نحو ذلك من الأدعية والأذكار. إذ لا يجحد عاقل منصف ما لهذه الأدوية الإيمانيّة من أثر ملموس، في تقوية رُوح المريض،

---

(1) متفق عليه عن أبي هريرة.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه ابن ماجه عن ابن عباس.

(4) متفق عليه عن عبد الرحمن بن عوف، وأسامة بن زيد.

وتنشيط كيانه الدّاخلي، فيقوي أمله في الشّفاء ورجاؤه في العافية، ويقينه برحمة الله، فلا يقنط من رحمة ربه إلّا الضّالون.

لقد كان النّبيّ ρ بقوله وعمله وتقريره أسوة حسنة في الهداية إلى الطّبّ الصّحيح، القائم على العلم والتّجربة، لا على التّهويل والادّعاء.

فهو ρ تداوى لنفسه وأمر بالتّداوي، لأنّ الذي خلق الدّاء خلق الدّواء.

وأصيب أحد الصّحابة بجرح فاحتقن الدّم، فدعا النّبيّ ρ رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه فسألهما رسول الله: «أيكما أطبّ؟» (أي: أحذق وأمهر؟) فقال الرّجل: أو في الطّبّ خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الله الدّواء الذي أنزل الدّاء»[1].

قال ابن القيم: في هذا الحديث أنه ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنّه إلى الإصابة أقرب[2].

وجاء عنه ρ: «من تطبّب ولم يُعْلَم عن الطّبّ فهو ضامن»[3].

وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيّون بهيئة أهل الطّبّ وليسوا من أهله، وحملهم مسؤوليّة أخطائهم في التّشخيص والعلاج، واحترم أهل الاختصاص والخبرة، فلكلّ علم رجاله، ولكلّ صناعة أهلها، ولا ينبئك مثل خبير.

فتح باب الأمل أمام الأطبّاء والمرضى:

فتح الإسلام باب الأمل على مصراعيه أمام الأطبّاء والمرضى معاً، في الشّفاء من كل مرض، مهما طال واتّصل، وقضى على اليأس المحطّم، وعلى ما يسمّى بالأمراض المستعصية. روى مسلم وأحمد، عن جابر: "لكلّ داء دواء، فإذا أصاب دواء الدّاء برئ بإذن الله تعالى"[4]. قال الشّوكاني: فيه دليل على أنّه لا

---

(1) رواه مالك ص944، طبعة عيسى الحلبي.

(2) زاد المعاد (132/4) طبعة الرسالة.

(3) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر.

(4) انظر: صحيح الجامع الصغير (5164).

بأس بالتّداوي لمن كان به داء قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له، وأقروا بالعجز عنه[1].

وقال ابن القيّم في "زاد المعاد": في قوله ρ: " لكلّ داء دواء " تقوية لنفس المريض والطّبيب، وحثّ على طلب ذلك الدّواء والتّفتيش عليه، فإنّ المريض إذا شعرت نفسه أن لدائه دواء يزيد تعلّق قلبه بروح الرّجاء، وبرد من حرارة اليأس، وانفتح له الرّجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزيّة، وكان ذلك سبباً لقوّة الأرواح الحيويّة والنّفسانيّة والطّبيعيّة، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته، وكذلك الطّبيب إذا علم أنّ لهذا دواء أمكنه طلبه والتّفتيش عليه، وأمراض الأبدان على وزان أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضاً إلّا جعل له شفاء بضدّه، فإن علمه صاحب الدّاء واستعمله، وصادف داء قلبه، أبرأه بإذن الله تعالى[2].

الاهتمام بالصّحّة النّفسيّة:

عني الإسلام بالصّحّة النّفسيّة عناية فائقة: ولا ريب أنّ بين النّاحية النّفسيّة والنّاحية الجسميّة تبادلاً في التّأثير، فكلاهما يؤثّر في الآخرة قوَّة وضعفاً، وصحَّة وسقماً، واعتدالاً وانحرافاً، وقد أثبت ذلك علماء النّفس وأطبّاء الجسم من قديم.

وقد رأينا في السّيرة النّبويّة مدى قوّة الرّوح وأثرها في قوّة البدن حين كانوا يبنون المسجد، والصّحابة يحملون لبنة لبنة، وعمّار بن ياسر يحمل لبنتين لبنتين، فرآه النّبيّ ρ فجعل ينفض التّراب عن رأسه، ويقول: «يا عمّار، ألا تحمل ما يحمل

---

(1) انظر: نيل الأوطار ج9 ص90،91 ط. دار الجيل، بيروت.

(2) زاد المعاد (17/4) طبعة الرسالة.

أصحابك؟» قال: إني أريد الأجر من الله[1]، وقال: «إنّ عماراً مُلِئَ إيماناً من قرنه إلى قدمه»[2].

وأشار إليها مرة أخرى حين نهاهم عن الوصال في الصّيام، فقالوا له: تنهانا عن الوصال، وتواصل؟ قال: «وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[3].

ومن مثله في قوّة الرّوح حتى يتحمّل ما يتحمّله عليه السلام؟

والمؤمن أقوى النّاس روحاً، وأصحّهم نفساً، فقد ملأ الإيمان ما بين جوانحه أمناً وطمأنينة ورضاً وأملاً وحباً، وطهّر نفسه من أدران الحقد والغلّ والحسد والبغضاء وأمراض القلوب الفتّاكة.

الحفاظ على عقل الإنسان وتنميته:

ويعمل الإسلام كذلك على حماية عقل الإنسان، باعتباره المميّز له عن الحيوان الأعجم، والمخاطب من الله تعالى بالتّكاليف، وقد اعتبر الأصوليون (المحافظة على العقل) من الضروريّات الخمس التي جاءت الشّريعة بحفظها. ولهذا حرّم الله تعالى الخمر على الإنسان، لأنّها تذهب بعقله، كما تضرّ بجسده وعقله وبأخلاقه وبماله وبأسرته وبمجتمعه.

ولم يكتفِ الإسلام بجانب النّهي، بل شرّع من الأحكام، وأرسى من التّوجيهات، ما ينهض بالعقل، ويرقى به، من ذلك فرضه لطلب العلم على كلِّ مسلم ومسلمة، ومقاومته للتّقليد والجمود على ما كان عليه الأجداد والآباء، أو ما كان عليه السّادة والكبراء. كما رفض الظّنَّ في موضع طلب اليقين، وأنكر اتّباع

---

(1) رواه أحمد في مسند ابن عباس والبخاري في الصلاة، والجهاد، ومسلم في الفتن، وهو بهذا اللفظ في صحيح ابن حبان (15:7079).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (133/1) بهذا اللفظ، وابن حبان بلفظ: " إلى مشاشة " الحديث 7076 والمشاش: رؤوس العظام اللينة.

(3) رواه الشيخان في الصيام عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأنس، وعائشة، وانظر: اللؤلؤ والمرجان (الأحاديث:670-674).

الهوى والعواطف في طلب الحقيقة، ودعا إلى النّظر والتّفكّر في ملكوت السّماوات والأرض وما خلق الله من شيء، كما اعتمد وجوب البرهان في العقليّات، والمشاهدة في الحسيّات، والتّوثيق في النّقليات.. وهذا كلّه ممّا يدلّنا على احتفاء القرآن الكريم بضرورة (تكوين العقليّة العلميّة)[1] التي ترفض الخرافات، ولا تقبل دعوى إلّا بدليل.

العناية بالطّفولة:

وإذا كان الإسلام يعنى بالإنسان، وبصحته، وبكيانه كلّه: النّفسي والعقلي والبدني، فإنّه يوجّه عناية أكبر إلى الإنسان الطّفل، لأمرين مهمّين: أولاً: أنه مخلوق ضعيف في حاجة إلى مزيد من الرّعاية، والإسلام يهتم عادة برعاية الضّعفاء. ثانياً: أنّ طفل اليوم هو رجل المستقبل، فهو يمثّل غد الأمّة، فإذا أحسنَّا رعايته وتربيته وتوجيهه، تفاءلنا خيراً بمستقبل المجتمع، وإذا أضعناه فقد أضعنا المستقبل.

ولا يتّسع المقام هنا للحديث عن موقف الإسلام من الطّفولة، التي يرعاها الإسلام منذ الولادة، بل منذ أن يبدأ الإنسان التّفكير في الزّواج.

وفصّلت الشّريعة أحكام الرّضاع والحضانة وحسن التّنشئة والملاعبة وتعليم الصّلاة والتّأديب المناسب، ما لا يخفى على مسلم حريص على دينه، وما يمكن تعلّمه بسهولة من أهله.

وأعطى الإسلام عناية أبلغ وأوفى للأطفال الذين لا عائل لهم، مثل (اليتامى) الذين إذا أهملوا أو قسا المجتمع عليهم، قد يصبحون في الغد جرثومة فساد فيه، وإذا رعيت حقوقهم، ولم تقهر شخصيّتهم، أوشكوا أن يكونوا أعضاءً صالحين في جسم المجتمع.

---

(1) انظر: فصل (تكوين العقلية العلمية) في كتابنا (العقل والعلم في القرآن) نشر مكتبة وهبة.

ولهذا قال تعالى: [فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ] [الضحى:9]، وجعل لهؤلاء اليتامى حظاً في أموال الغنائم والفيء، مع المساكين وابن السبيل.

كما لم تنس الشّريعة الإسلاميّة الأطفال الذين لم يعرف لهم آباء ولا أمهات، فهؤلاء لا ذنب لهم، فمن الواجب القيام برعايتهم وحسن تربيتهم. ولا غرو أنّ في كل كتب الفقه الإسلامي بابًا لـ (اللقيط) يفصّل أحكامه وما له من حقوق على المجتمع.

(6)

الإحسان بالبيئة:

الإسلام يربّي المسلم على التّعامل مع كلّ ما حوله بإحسان، كما جاء في الحديث الصّحيح الذي رواه مسلم عن شدّاد بن أوس أن النّبيّ ρ قال: «إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء»[1]. ومعنى: أنّه كتبه أي فرضه فرضيّة موثّقة.

والإحسان كلمة قرآنيّة نبويّة تتضمّن معنيين:

الأوّل: معنى الإحكام والإتقان. والثّاني: معنى الإشفاق والحنان والإكرام.

والمعنيان مطلوبان هنا في التّعامل مع البيئة، فيجب أن تعاملها بإحكام وإتقان، لا بإهمال وغفلة وإضاعة. كما يجب أن تعاملها برفق وإشفاق وحنان.

وفي الحديث الصّحيح: «إنّ الله رفيق يحبّ الرّفق في الأمر كلّه»[2]، «إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا ينزع من شيء إلّا شانه»[3]، «مَن يحرم الرّفق يحرم الخير»[4].

ويتمثّل هذا الرّفق مع كلِّ عناصر البيئة، جامدة كانت أم حيّة، عاقلة أم غير عاقلة. فيشمل هذا الرّفق الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد.

---

(1) رواه مسلم عن شداد بن أوس.

(2) متفق عليه عن عائشة.

(3) رواه مسلم عن عائشة.

(4) رواه مسلم عن جرير بن عبد الله.

الإحسان بالإنسان:

فأمّا الإحسان بالإنسان فهو أمر مفروغ منه، ولا ريب فيه، رحمة له، وتلطُّفا به، سواء كان مسلماً أم غير مسلم. يقول الله تعالى لرسوله: [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ] [آل عمران:159].

ويتأكّد الإحسان بالضّعفاء من النّاس: من اليتامى والمساكين وأبناء السّبيل، والأرامل، وكلّ ضعيف في المجتمع، سواء كان ضعفه من فقد الأب كاليتيم، أو فقد المال كالمسكين، أو فقد الوطن كابن السّبيل، أو فقد الحريّة كالرّقيق، أو فقد الزّوج كالأرملة.

عن أبي هريرة τ عن النّبيّ ρ قال: «السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، والصّائم لا يفطر»[1].

قال تعالى في آية الحقوق العشرة: [وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ] [النّساء:36].

وأمر الإسلام بالرّحمة بخلق الله جميعاً، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الرّاحمون يرحمهم الرحّمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

الإحسان بالحيوان:

ومن أروع ما جاء به الإسلام هنا، هو الإحسان والرّفق بالحيوان، في عصر ما كان يعتبر أنّ لهذه الحيوانات قيمة أو حقًّا، وأنّ في الإحسان إليها أجراً.

لقد امتنّ الله تعالى على الإنسان بتسخير الحيوانات له، وبعضها أقوى منه وأكبر حجماً، فالواجب عليه أن يرفق بها، ويشكر الله تعالى على إنعامه بها، ولا يقسو عليها ويعذبها بغير حق. يقول تعالى: [ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا

---

(1) متفق عليه.

(2) رواه أبو داود عن ابن عمرو.

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ] [غافر:79-81].

وجاءت الأحاديث النّبويّة المستفيضة تُحرِّض على الرّحمة بالحيوان، وترهّب من القسوة عليه، أو إضاعته وإهماله، منذرة بوعيد شديد لمن اقترف شيئاً من هذه الأعمال. كما تنبئ بجزيل المثوبة عند الله لمن أحسن إلى هذه المخلوقات العجماوات.

اقرأ معي هذه الأحاديث لترى كيف حفل هذا الدّين بهذا الأمر، وهي مما انتقيناه من كتاب (التّرغيب والتّرهيب) للحافظ المنذري.

عن معاوية بن قرَّة عن أبيه τ أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لأرحم الشّاة أن أذبحها، فقال: «إن رحمتها رحمك الله» رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ رجلاً أضجع شاة، وهو يحدّ شفرته، فقال النّبيّ ρ: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟!»[1].

قال العلاّمة ابن رجب: وأكثر العلماء على كراهية التّحريق بالنّار حتى للهوام.

وقال إبراهيم النّخعي: تحريق العقرب بالنّار مثلة. ونهت أم الدّرداء عن تحريق البرغوث بالنّار. وقال أحمد: لا يشوى السّمك بالنّار، وهو حيّ.

ومن التّوجيهات النّبويّة ألّا يذبح ولد النّاقة وهو صغير عند ولادته، فلا ينتفع بلحمه، ولا بلبن الناقة، لأنّها يجفّ لبنها حزناً على ولدها، ثمّ فيه توليه النّاقة على ولدها بفقدها إيّاه. والأولى أن يترك حتى يكبر، ويكون ابن مخاض (يكمل سنة

(1) قال المنذري: رجال الطبراني رجال الصحيح، ونحوه قال الهيثمي (33/4).

ويدخل في الثانية) أو ابن لبون (يكمل سنتين ويدخل في الثالثة) وقد جاء ذلك في حديث رواه أبو داود[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ρ: «دخلت امرأة النّار في هرّة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وفي رواية: "عذّبت امرأة في هرة سجنتها حتّى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض" رواه البخاري[2]، وغيره.

روت عائشة رضي الله عنها أن النّبيّ ρ كان يصغي للهرة الإناء، فتشرب، ثم يتوضّأ بفضلها[3]. وهذه المعاملة النّبويّة الكريمة للهرّة كان لها أثرها الفعّال في نفوس أزواجه وأصحابه رضي الله عنهم.

ورُوِيَ عن كبشة بنت كعب بن مالك ـ وكانت تحت ابن أبي قتادة ـ أنّ أبا قتادة دخل، فسكبت له وضوءاً (الماء الذي يتطهر به) فجاءت هرّة فشربت منه، فأصغى لها الإناء حتى شربت، قالت كبشة: فرآني أنظر إليه، فقال: أتعجبين يا ابنة أخي؟ فقلت: نعم. فقال: إن رسول الله ρ قال: إنّها ليست بنجس؛ إنّها من الطوّافين عليكم والطوّافات"[4].

قال الإمام الخطابي في (معالم السنن): قوله " إنّها من الطوّافين عليكم والطوّافات" يتأوّل على وجهين:

أحدهما: أن يكون شبّهها بخدم البيت، وبمن يطوف على أهله .. كقوله تعالى [طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ] [النّور:58]. وقال ابن عمر: إنّما هي ربيطة من ربائط البيت.

---

(1) رواه أبو داود.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه الطبراني في الأوسط.
(4) رواه أبو داود.

والوجه الآخر: أن يكون شبّهها بمن يطوف للحاجة والمسألة. يريد أنّ الأجر في مواساتها كالأجر في مواساة من يطوف للحاجة ويتعرّض للمسألة.[1] انتهى.

وهذه التّعاليم لم تكن مجرّد كلام نظري أو حبر على ورق، بل تحوّلت إلى واقع عملي تجسّد في حياة المسلمين، وفي حضارتهم المتوازنة.

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يزجرون كل من قسا على الحيوان. جاء في العتبية: "قال مالك: إنّ عمر بن الخطاب مرّ بحمار عليه لبن، فوضع عنه طوبتين، فأتت سيدته (مالكته) لعمر فقالت: يا عمر، مالك ولحماري؟ ألك عليه سلطان؟ قال: فما يقعدني في هذا الموضع؟".

وعقب ابن رشد على قول عمر فقال: المعنى في هذا بيّن، لأنّ المصطفى ρ قال: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيّته..".

وقد قال عمر في مثل هذا: "لو مات جمل بشاطئ الفرات ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنه"[2] أ.هـ.

وجاء الفقهاء ففصّلوا ما يجب على مالك الدّابّة من النّفقة والرّعاية في كتاب النّفقات من كتب الفقه، كما فصّلوا ما يجب على الإنسان نحو الكلاب والطّير ونحوها، تفصيلاً لم يخطر ببال أحد من البشر في تلك الأعصار، وهو تفصيل لم تدفع إليه المنفعة الماديّة أو المصلحة الاجتماعيّة فحسب، كما هو الشّأن في القوانين الوضـعيّة، بل الدّافع إليه ـ فوق ذلك كله ـ دافع أخلاقي محض، هو رفع الظّلم والأذى والضّرر عن كائن حي ذي كبد رطبة، يحسّ ويشعر ويتألّم وإن لم يكن له لسان يتكلّم به ويشكو.

وليست مراعاة هذه الأحكام الخاصّة برعاية الحيوان والإحسان إليه، موكولة إلى ضمائر الأفراد فقط، فمن فرّط فيها أو تهاون بها لم يكن للقضاء ولا

---

(1) انظر: معالم السنن مع مختصر المنذري وتهذيب ابن القيم (78/1) حديث (68).

(2) التراتيب الإدارية (268/1).

للدّولة عليه من سلطان. كلا، فقد رأينا العُمَرَيْن ـ ابن الخطاب وابن عبد العزيز ـ يلزمان الرّعيّة بالرّفق إلزاماً، وإنما لم يفعل ذلك النّبيّ ρ، لأنّ النّاس في عهده كانت تكفيهم الموعظة لتغيير سلوكهم، دون حاجة إلى إلزام قضائي أو تدخّل حكومي.

أمّا بعد ذلك فمن حقّ السّلطان والقاضي والمحتسب أن يتدخّلوا لإزالة الظّلم عن هذه المخلوقات المظلومة، ومن واجب أي مسلم شاهد هذا الظّلم أو القسوة أن ينهى عنه، ومن حقّه أن يرفعه إلى أولي الأمر ليعملوا على رفعه.

قال العلّامة الماوردي في " الأحكام السّلطانيّة" : " إذا كان من أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق الدّوام عليه أنكره المحتسب عليه ومنعه منه" أ. هـ .

وبهذا تتبيّن لنا روعة هذه الأحكام الخاصّة بالرّفق بالحيوان، وسبقها بقرون طويلة كل ما عرفه النّاس عن ذلك في العصر الحديث وفاقته بمراحل ومراحل[1].

الإحسان بالنّبات:

ومن مجالات الإحسان بالبيئة وعناصرها الحيّة: الإحسان بنباتاتها وأشجارها، وذلك بحكم أنّ الإنسان مستخلف من الله في هذه الأرض، وأمانة الخلافة تقتضي أن يحافظ المستخلف على كل ما ائتمن عليه، وعهد إليه رعايته. وإنما يتم ذلك برعاية حاجته، وإصلاح أمره، وعدم إفساده وإتلافه، أو تعريضه للتّلف بوسيلة وأخرى.

---

(1) انظر: كتابنا (مدخل لدراسة الشّريعة الإسلامية) فصل (الأخلاقيّة) من خصائص الشّريعة.

ولعلّ أبرز النصوص في ذلك ما جاء في المحافظة على نباتات الحرم، بحيث لا يقطع بأي وسيلة من الوسائل، بله أن يتلف أو يحرق. ولم يستثن من ذلك إلّا (الإذخر) لحاجة النّاس إليه.

ومن عجيب ما يذكر هنا: اهتمام المسلمين ببعض أنواع النّبات أكثر من غيره مثل (النّخلة) التي تكرّر ذكرها والحديث عنها في القرآن، والتي شبهها النّبيّ ρ بالمؤمن أو شبّه المؤمن بها، وقال: «إنّ من الشّجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المؤمن».

الإحسان والرّفق بالجمادات:

وليس الإحسان والرّفق المطلوب مقصوراً على الكائنات الحيّة من الإنسان والحيوان والنّبات فحسب، بل يشمل: الأحياء والجمادات جميعاً.

ولهذا ينبغي للمسلم أن يحسن بكلِّ ما يتَّصل به، ويتعامل معه، ويرفق به الرّفق الذي يلائمه، ويحفظه وينمّيه، كما يحبّ الله تعالى ويرضى. كما قال تعالى: [وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ] [البقرة:195].

الإحسان بالأرض وتربتها:

ومن ذلك: الإحسان بالأرض التي نعيش عليها، ونمشي في مناكبها، آكلين من رزق الله فيها، وقد جعلها الله لنا ذلولاً.

وقد خلق الله لنا هذه الأرض صالحة لإقامتنا، ولغرسنا وزرعنا، وجعل لنا بها صلة وثيقة، فمنها نأكل وتأكل أنعامنا، وعليها نعيش وتعيش حيواناتنا، إلى ترابها نعود بعد موتنا، ومنها نخرج عند بعثنا. وهذا ما جعل كثيراً من الأدباء والشّعراء يقولون: الأرض أُمُّنا!

وقد أمرنا الله تعالى أن نحسن بالأرض، ونصلحها، ولا نعثي فيها مفسدين، قياماً بأمانة الاستخلاف، وبشكر النّعمة، وبواجب العمارة.

فمن الإحسان بالأرض الزّراعيّة أن يتولّاها زارعها بالرّعاية والتّسميد والسّقي والتّنقية ممّا يعوق نماء نباتها، وعليه أن يراعي ما يناسبها من الزّرع، فمن الزّرع ما إذا استمر في أرض أضعف تربتها، وأفقدها كثيراً من حيويّتها. ولقد رأيت الفلّاحين في قريتي ـ وأنا صبي ـ يزرعون الأرض في سنة قمحاً وشعيراً، وفي السّنة التّالية برسيماً، فالقمح يضعفها، والبرسيم يقوّيها، وقد ذكر علماء الزّراعة لذلك تفسيراً لا مجال له هنا الآن.

وأعظم ما يتحقّق به الإحسان في عصرنا: تجنّب كل ما يؤدّي إلى (تلويت التّربة) بالمواد التي تخرجها عمّا جعل الله فيها من الخير والبركة والصّلاح بمقتضى فطرتها، فلا يجوز للإنسان تغيير فطرتها التي فطرها الله عليها، فكلّ خروج على الفطرة ـ في أي مجال كان ـ ضرب من الفساد المحظور.

الإحسان بالماء:

ومن الإحسان بالجماد كذلك: الإحسان بالماء، أساس خلق الأحياء، وقوام الحياة كلّها.

والإحسان بالماء يتضمَّن عدّة أمور، ينبـغي للإنسان ـ وخصوصاً الإنسان المؤمن ـ أن يعيها ويغرسها في أعماق فكره ووجدانه. منها:

1. أن يشعر بنعمة الله عليه فيه، ويحمده تعالى عليها، روى مسلم في صحيحه عن أنس τ قال: قال رسول الله ρ «إنّ الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشّربة فيحمده عليها»[1].
2. أن يحافظ عليه نقيّاً طاهراً، فلا يلوّثه بأي ملوّث من الملوّثات، التي تخرجه عن فطرته، وتجعله خبيثاً غير طاهر، ضاراً غير نافع.
3. أن يقدّر قيمة الثّروة الثمينة، التي لا يقدّر قدرها، فلا يسرف في استعماله بغير حاجة، ولا يضيعه هباء، فقد نُهي المسلم عن الإسراف في الماء.

---

(1) رواه مسلم.

ويلحق بالماء: الهواء الذي جعل الله فيه حياة الإنسان والحيوان والنبات، وعلى الإنسان أن يتعامل معه بما لا يفسده ولا يلوثه، وبشكر نعمة الله فيه.

كما يلحق بذلك كل ما يقع تحت يد الإنسان من الأشياء، والآلات والأدوات والمساكن، فواجب عليه الإحسان بها، ولا يجوز إفسادها أو إتلافها أو العدوان عليها، أو إهمالها وإضاعتها، فتضيع بذلك ثروة على المجتمع، بل على البشريّة كلها.

(7)

المحافظة على البيئة من الإتلاف:

يسعى الإسلام بتوجيهاته الأخلاقيّة، وتشريعاته القانونيّة للمحافظة على عناصر البيئة ومكوّناتها، ويعمل على تنميتها وتحسينها. كما أنّ الإسلام يقاوم بشدّة كل عمل يفسد البيئة، ويتلف عناصرها، ويعتبر ذلك عملاً محرّماً يعاقب الله عليه، ومنكراً يجب النّهي عنه، وتغييره باليد أو باللّسان أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

وهناك أنواع من الإتلاف بدوافع مختلفة كلّها محرّم ومنكر شرعاً.

أ- الإتلاف بدافع القسوة:

فمن الإتلاف المحظور شرعاً: الإتلاف بدافع القسوة على خلق الله، وخصوصاً من الحيوانات، كما جاء ذلك في حديث المرأة التي حبست الهرّة حتى ماتت جوعاً.

وإنّما استحقّت هذه المرأة النار والعذاب، لقسوة قلبها، وخلوّه من الرّحمة لهذه المخلوقة الضّعيفة.

ب- الإتلاف بدافع الغضب:

وممّا يحرّمه الإسلام الإتلاف لعناصر البيئة الحيّة - ولو كانت من جنس الحشرات - بدافع الغضب، ولا سيّما إذا أدّى ذلك إلى ما يشبه (الإبادة الجماعيّة)، فكثيراً ما أدى الغضب بصاحبه إلى الوقوع في فساد الرّأي أو فساد السّلوك.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ρ يقول: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل، فأحرقت فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة تسبح الله؟»[1].

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: أنه وقع في بعض طرقه: أنّ الله أوحى إليه: "فهلا نملة واحدة؟" فإن فيه إشارة إلى أنه لو أحرق التي قرصته وحدها لما عوتب[2].

وقال الحافظ المنذري في (التّرغيب والتّرهيب) بعد أن ذكر رواية "فهلا نملة واحدة" فيه دليل على أن التّحريق كان جائزاً في شريعتهم[3].

ج- الإتلاف بدافع العبث:

ومن الإتلاف المحظور والمنكر شرعاً: الإتلاف بدافع العبث، ومعنى العبث: ألّا يكون له هدف يحقّق له منفعة معتبرة من وراء هذا الإتلاف المتعمّد.

ومن ذلك: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: أنّه مرّ بفتيان من قريش نصبوا طيراً - أو دجاجة - يترامونها. وقد جعلوا لصاحب الطّير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن ρ لعن من اتخذ شيئاً فيه الرّوح غرضاً![4].

والغرض: هو الهدف الذي ينصبه الرّماة، يقصدون إصابته من قرطاس أو خشب أو معدن أو غيره.

فهؤلاء قد اتّخذوا هذا الطّير أو هذه الدّجاجة غرضاً لهم يصوّبون نحوه نبالهم، إمّا ليتدربوا أو ليتسابقوا، وكان يمكنهم أن يحقّقوا هذه المنفعة باتّخاذ غرض من خشب أو قرطاس ونحو ذلك، ولكنه العبث بأرواح المخلوقات الضّعيفة غلب

---

(1) متفق عليه.
(2) المصدر السابق.
(3) انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب .. الحديث (1818).
(4) متفق عليه.

على هؤلاء الفتية، ولهذا حذّرهم ابن عمر وأخبرهم بلعن رسول الله ρ لكل من قام بهذا الصّنيع.

د- الإتْلاف بلا ضرورة ولا حاجة:

ويقرب من هذا الإتلاف العبثي: الإتلاف لعناصر البيئة بلا ضرورة تلجئ إلى ذلك، ولا حاجة معتبرة تدفع إليها، إنّما هو الجهل أو الظّلم والإفساد في الأرض، الذي نهت عنه كل رسالات السماء.

انظر إلى هذا الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عبد الله بن حبشي τ قال: قال رسول الله ρ: «من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النّار»[1].

والمراد بالسّدرة: شجرة السّدر المعروف، (ويسمى في بعض البلاد:النّبق) وهو ينبت في الصّحاري، ويصبر على العطش، ويقاوم الحرّ، وينتفع النّاس بتفيؤ ظلاله، والأكل من ثماره، إذا اجتازوا تلك الفيافي مسافرين، أو باحثين عن الكلأ والمرعى، أو لغير ذلك من الأغراض.

والوعيد بالنّار لمن قطع سدرة يدل على تأكيد المحافظة على مقوّمات البيئة الطّبيعيّة، لما توفره من حفظ التّوازن بين المخلوقات بعضها بعضا، وما يمثله الاعتداء عليها من فقدان بعض العناصر المهمّة لسلامة الحياة والإنسان.

وبهذا سبقت السّنّة النّبويّة الجماعات والأحزاب المعاصرة في كثير من أنحاء العالم،التي تنادي بالمحافظة على (الخضرة) في الغابات وغيرها،وتندد بقتلة (الأشجار) وبـ(المذابح) التي تتعرّض لها الأراضي الخضراء نتيجة جهل الإنسان وجشعه [**إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**] [الأحزاب: 72].

هـ- الإتلاف بسبب الإهمال والإضاعة:

ومن الإتلاف المحظور: الإتلاف بسبب الإهمال للشّيء، والتّقصير في رعايته حتى يتلف ويهلك، سواء كان حيواناً أم نباتاً أم جماداً. ويدخل ذلك ـ أوّل ما يدخل ـ في إضاعة المال التي نهى عنها النّبيّ ρ.

---

(1) رواه أبو داود.

ومن أمثلة ذلك: إهمال الحيوان حتى يهلك من الجوع أو المرض، وإهمال الزّرع حتى تأكله الآفات، وإهمال الحبوب والثمار والأطعمة حتى يتلفها العفن والسوس، وإهمال الثّياب حتى تبليها (العثّة)، وإهمال المباني والمرافق حتى تهلكها عوادي الزمن، وإهمال الآلات حتى يأكلها الصدأ، ومن ذلك إضاءة الأنوار نهاراً حيث تستهلك الطّاقة بلا حاجة إليها، وترك صنابير المياه مفتوحة حيث تصبّ في غير حاجة، وإلقاء فضلات الطّعام في القمامة وفي النّاس من يحتاج إلى لقيمات يقمن صلبه، وترك الثّياب الصّالحة للاستعمال لمجرّد خرق صغير بها، أو مرور زمن عليها، وفي المجتمع من يحتاج إلى خرقة تستر عورته أو تقيه الحرّ والقر.

ومن إضاعة المال: ترك الأرض الصّالحة للزراعة دون استغلالها، وترك الوسائل المستطاعة لزيادة إنتاجها ـ كماً ونوعاً ـ دون استخدامها، وكذلك إهمال الثّروة الحيوانيّة مع إمكان تنميتها، وتوسيع نطاق الانتفاع بها، بلحومها وألبانها وما يستخرج منها، وبما أشار القرآن الكريم إليه من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها. وترك المصانع والمباني والأجهزة دون صيانة دورية، حتى تهلك قبل عمرها الافتراضي.

و- تحريم الإتْلاف في الحرب:

ومن روائع ما جاء في الشّريعة الإسلاميّة: أنّها لم تجز الإتلاف والإفساد لعناصر البيئة، حتى في حالة الحرب، التي يخرج النّاس فيها عادة على الحدود المعهودة، ويتجاوزون المألوف في العلاقات، فكثيراً ما يقطعون الأشجار، ويخرّبون العامر، ويهدمون الأبنية، ويقتلون الحيوانات لا ليأكلوها، بل ليتلفوها على أعدائهم. وهذا ما منعه الإسلام في حروبه، إلّا ما اقتضته الضّرورة القصوى، مثلما حدث في حصار بني النّضير، حيث اختبأوا في نخيلهم محتمين به، معتمدين على أنّ المسلمين لن يقدموا على ضربهم في نخيلهم، لأنّه من الإفساد الذي نهى عنه الإسلام.

ولكن الله تعالى أذن لرسوله لضرورة الحرب في قطع بعض النّخيل، وكشف القوم، وإلزامهم بالمواجهة الصّريحة، وقد قال اليهود في ذلك: كنت تنهى عن الفساد يا محمد، فما بالك تفعله اليوم، أو نحو ذلك؟

فأنزل الله تعالى في كتابه [مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ (نخلة) أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ] [الحشر:5].

وجاء في وصايا أبي بكر τ لقواده في الحرب هذه الوصية الواضحة الحاسمة، فقد قال يحيى بن سعيد: حدّثت أنّ أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشّـام، فخرج يشيـع يزيد بن أبي سفيان، فقال:

إني أوصيك بعشر: لا تقتل صبيّاً، ولا امرأة، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعنّ شجراً مثمراً، ولا تخرّبنّ عامراً، ولا تعقرنّ شاة ولا بعيراً إلّا لمأكلة، ولا تغرقنّ نخلاً، ولا تحرقنّه، ولا تغلل، ولا تجبن"[1].

وهذا ما مضى عليه المسلمون في حروبهم طوال الفتوح الإسلاميّة، التي كان المسلمون فيها أقوى قوّة عسكريّة في الأرض، ولكنهم تجنّبوا سياسة الإتلاف والإفساد، وما يسمونه في عصرنا (الأرض المحروقة) بل كانوا دائماً صالحين مصلحين، لأنّهم وعوا قول الله تعالى: [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ] [الأنبياء:105].

(8)

حفظ التّوازن البيئي:

ومن أهمِّ ما جاءت به التّعاليم الإسلاميّة فيما يتعلّق بالبيئة: حفظ التّوازن البيئي والحيلولة دون اختلال هذا التّوازن.

فمما لا شكّ فيه أن الله تعالى خلق كلَّ شيء في هذا الكون بحسـاب ومقدار، [مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ] [الملك:3].

---

(1) رواه مالك.

لم يخلق شيء في هذا الكون عبثاً أو اعتباطاً، ولم يوضع شيء في غير موضعه، لأنّ هذا ينافي حكمة الحكيم، [ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ] [السّجدة:7]، والذي اعترف بحكمته أولو الألباب الذين يذكرونه على كلِّ حال، [وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلاً سُبۡحَٰنَكَ] [آل عمران:191].

لقد قرَّر القرآن الكريم هذه الحقيقة بوضوح لا ريب فيه: [إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ] [القمر:49]، [وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا] [الفرقان:2]، [وَكُلُّ شَىۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ] [الرعد:8]، [ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۝ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِى ٱلۡمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ] [الرحمن:5-9].

وهذا هو المطلوب من الإنسان أبداً: العدل والاعتدال في الميزان: لا طغيان في الميزان، ولا إخسار في الميزان، وإنما ينحرف النّاس ويسقطون ويضيعون ويهلكون، حين يطغون في الميزان أو يخسرون، والطّغيان يعني: الغلو والإفراط، والإخسار: يعني التّقصير والتّفريط، وكلاهما مذموم، إنّما المحمود هو التّوسّط.

وهذا العدل والاعتدال والتّوسّط والتّوازن ـ سمّه ما شئت ـ مطلوب من الإنسان في كلّ شيء، في الماديّات والمعنويّات، في أمور البيئة، وأمور الإنسان والحياة كلّها.

إنّ كلّ شيء في هذا العالم بقدر، كما ذكر القرآن الكريم. الماء أنزله الله أو خلقه الله بقدر، كما قال: [وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ] [المؤمنون:18]. فكميّة الماء التي جعلها الله في الأرض مقدّرة تقديراً حكيماً دقيقاً، على حسب حاجة الحياة والأحياء فيها، بلا زيادة ولا نقصـــان. [ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ] [يس:38].

ويقول تعالى: [وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىۡءٍ مَّوۡزُونٍ] [الحجر:19]، وكلمة (موزون) هنا لا تفسَّر تفسيراً مجازياً، بل إنّ كلَّ شيء في النّبات موزون بالفعل يعرفه المختصُّون متمثّلاً في نسب ما في النّبات من معادن

أو أملاح أو ماء أو غيرها بالجرام أو الملي جرام، وما هو أدنى من ذلك من الموازين الحديثة.

وقد ذكر أ. كريسي موريسون في كتابه الذي ترجم إلى العربيّة تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) وفي فصل (ضوابط وموازين) ما بين لنا بالفعل أن كل شيء في هذا الكون بحساب ومقدار، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

وإنّ بعض الحشرات التي يجهل النّاس الحكمة من خلقها، قد تكون لها فائدة هامّة لا يعرفها النّاس.

وذكر موريسون في كتابه أنّه ظهر في أمريكا في فترة من الزّمن نبات (شيطاني) نما وتفرّع واتّسع وانتشر، حتى غدا النّاس يقاومونه، ولا يجدون له حيلة، ولا يهتدون سبيلاً، حتى اكتشف بعض العلماء حشرة معيّنة، فسلّطوها على هذا النّبات فأعادت التّوازن.

إنّ صراع (الأضداد) هذا هو في حقيقته سعي إلى التّوازن في الكون، ولولاه لطغى بعضها طغياناً لا يمكن إيقافه.

وقد حكي أنّ بلدة ما كان فيها بعض السّباع التي أقلقت النّاس، فخطّط أهل القرية للقضاء عليها، وتربّصوا بها يوماً فأعملوا فيها السّلاح حتى أفنوها. وفي اليوم التّالي فوجئ أهل القرية بجيوش من القرود زحفت عليهم من الجبال من حولهم، هددت حياتهم وزرعهم وضرعهم، فقد كان وجود السّباع هو الحائل لها دون اقتحام القرية وغزوها.

والذي نهدف إليه من هذا: أنّ الكون ـ كما خلقه الله ـ متوازن في نفسه، متكامل بعضه مع بعض، ولو طغى فيه شيء، وجد من الكون نفسه ما يرد طغيانه، ويعيد الأمور إلى الموازين القسط.

وإنما يختل التّوازن في الكون وفي الحياة بتدخّل الإنسان غير المسؤول، وعمله غير المحسوب، وغير المشروع. وتغييره لفطرة الله تعالى في نفسه وفي الكون من حوله، ومجاوزته لحدّه في التّعامل مع المخلوقات الأخرى.

وهنا ينزل به العقاب الإلهي، جزاء وفاقاً، [ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ] [آل عمران:182].

ولقد زاد تدخّل الإنسان في البيئة في هذا القرن، وزاد أكثر وأكثر في العقود الأخيرة منه، مما أخلّ بالتّوازن البيئي، وأخلّ بالنّسب في العلاقات بين الأشياء بعضها بعضا، بالطّغيان حيناً وبالإخسار حيناً، ممّا أدّى إلى (التصحّر) في بعض المناطق، وطغيان البحر على اليابسة في مناطق أخرى، وتغير المناخ العام، وارتفاع درجة الحرارة، وبروز مشكلة (الأوزون) بشكل بات مقلقاً للبشريّة في مستقبلها القريب.

وهو ما يخيف المؤمنين أن يؤدّي طغيان الإنسان وفساده إلى دمار الأرض وما عليها، كما قال تعالى: [حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ] [يونس:24].

فهل يتفكّر النّاس في آيات الله قبل أن تقع الكارثة على رؤوس الجميع؟ وحينئذ يلتمسون الخلاص، ولات حين مناص!